اللغة العربيـــــة
وأثرها فى لغات أوروبا

للدكتور على مظهر

مقدمة

كانت اللغة العربية محصورة فى جزيرة العرب أيام الجاهلية الأولى ، ولا يظن أنها تعدت تلك الجزيرة أو تخطتها إلا نادراً ، فقد كان يرحل بعض أفراد إلى بلاد الروم أو بلاد فارس أو غيرهما مما يجاور بلاد العرب إما براً وإما بحراً . مثال ذلك التجاء امرىء القيس شيخ شعراء الجاهليين لما كان يطلب النجدة من ملك الروم ، وقد توفى بأنقرة فى قصة طويلة معروفة . والمسائل الفردية ، أو ارتحال أفراد قلائل للتجارة أو نحوها لا يعد شيئاً يذكر كثيراً .

ولا نقصد من كلامنا هذا أن بلاد العرب كانت بمعزل عن العالم انعزالا تاماً ، أو أنها كانت مجهولة لمن جاورها من الأمم الأخرى ، كلا فقد عرفها أقوام عديدون واعتدت على أطرافها شمالا وجنوباً الأمم ذات البأس والشوكة آيامئذ ، وحدثت بها معارك وسالت فيها دماء أجنبية كثيرة من رومية وفارسية ومصرية وآشورية وحبشية وغيرها . وجاءها التجار من الهند وأفريقية وفارس . ولا بد أن يكون من عرب الجاهلية من انتقل فى سبيل التجارة إلى البلاد الأخرى . لهذا كله لا نعجب أن نرى ألفاظاً دخيلة من اللغات الأخرى فى اللغة العربية قبل الاسلام . فامرؤ القيس وأعشى قيس قد استعملا ألفاظاً فارسية الأصل فى شعرهما ، وهما من تعلم فى الأدب الجاهلى . والألفاظ الفارسية [1] أبين من غيرها وأكثر منها عدداً فى العربية لأسباب نضرب صفحاً عن ذكرها الآن .

ولما ظهر محمد بن عبدالله فى جزيرة العرب هادياً ومبشراً ونذيراً ، وعم الاسلام جزيرة العرب ، بدأ العرب يدعون الناس للدين الحق ، وأخذوا فى فتح الأمصار . وامتدت فتوحهم شرقاً وغرباً من التركستان الصينية شرقاً إلى مكان لا يبعد عن باريس عاصمة فرنسا الآن بأكثر من ثلاث ساعات بقطار السكة الحديد . وذلك المكان واقع بين پواتيه وتور . ودخلت أمم عديدة مختلفة الأجناس واللغات والأديان فى دين يدعو الناس إلى الخير وإلى حسن المعاملة وإلى فضائل أخرى ومكارم أخلاق لا تعد ولا تحصى .

---

(١) راجع ديوان الاعشى شرحه المرحوم جاير Geyer الذى كان أستاذ اللغة العربية واللغات السامية بجامعة فينا ، والديوان مطبوع بفينا فى السنين الاخيرة ويوجد منه الجزء الاول فقط بدار الكتب المصرية .

ورأينا الجيوش الاسلامية تهد دولتى الأكاسرة والقياصرة هداً ، وتدكهما دكا ؛ وتنقض عروشهما فاذا هي خاوية خالية ، ليحل محلها العدل بعد الظلم ، والهدى بعد الضلال ، والنور بعد الظلمات . وقضى الاسلام على أواخر مدنيات ، ونهاية الحمدين الوحشية .

اللغة العربية ولغات الشرق

وانسابت الجيوش الاسلامية فى البلاد والأقطار تفتحها ، وأخذ الناس يتعلمون العربية لغة دينهم الجديد أو لغة أسيادهم المتيدين . ولما امتد الزمن قضى على لغات كانت للأمصار المفتوحة ، كما قضى على اللغة القبطية القضاء التام فى مصر مثلا . وقد ظل بعض أفراد قلائل يتكلمون بها لآخر مرة منذ ثلاثة قرون ، كما قضى على بعض اللهجات واللغات الأخرى فى بلاد العراق والشام وجنوب جزيرة العرب .

وأخذت بعض اللغات ألفاظاً واصطلاحات عربية كثيرة أو قليلة ، كما فعلت اللغة الفارسية والتركية واليوشتية لغة إخواننا الأفغان ، وذلك لضرورة رأوها لاحتياجهم إلى بعض الألفاظ الخاصة بالمسائل الدينية والشرعية وأمور أخرى . ولا يمكن تقدير النسبة المئوية للألفاظ العربية التى فى هاته اللغات بالضبط تبعاً لاحكام الزمن ، ولكنها فى الواقع ألفاظ كثيرة جداً فى بعضها ، كما هى الحال فى الفارسية والتركية العثمانية قبل قيام جماعة الكماليين ؛ فقد كان باللغة التركية العثمانية فى القرن الماضى وأوائل هذا القرن الألوف من الألفاظ العربية ، ولا ندرى عددها الآن بعد الحركة الجديدة فى تركيا .

وإذا علمنا أن بالصين الآن آلاف الألوف العديدة من المسلمين حتى أوصل عددهم البعض إلى ستين ألف ألف ؛ وقال البعض بل ثمانين مليوناً ، إذا علمنا ذلك فلا يبعد أن يكون بالصينية ألفاظ عربية لا يمكننا أن نذكر عنها كثيراً الآن ، وربما كانت تلك الألفاظ بالجهات التى يكثر بها المسلمون هناك .

ولما دخل الاسلام فى الهند على يد غزاة المسلمين بقيادة سلاطينهم وملوكهم ؛ وانتشر الاسلام فى تلك الأرجاء استعملت جملة من الألفاظ والاصطلاحات العربية الاسلامية ضرورة فى الأرجاء التى اهتدت بنور الاسلام وبتعاليمه ، وكذلك كانت الحال عقب انتشار الاسلام فى جزر الهند الشرقية .

اللغة العربية واللغات الغربية ـ الاحتكاك اللغوى المباشر

هذا فى الشرق وقد أتينا على انتشار العربية هناك إجمالا فلننتقل إلى الغرب فنقول :

غزت جيوش المسلمين شمال أفريقية حتى وصلت إلى بر العدوة بمراكش ، وعبر طارق

ابن زياد وجيشه إلى الجهة المقابلة من جزيرة إيبريا، وحفظ ذلك الجبل الذى نزل به اسم الفاتح المسلم حتى اليوم ، وأخذ المسلمون يفتحون البلاد والمدن والأمصار حتى أن كانت أيام عبد الرحمن الغافقى أمير الأندلس من قبل الأمويين . فانه سار بجيشه يغزو جنوب فرنسا ، وانساب جيشه يتقدمه أميره حتى أن جاء إلى مكان محصور بين مدينتى بواتيه وتور على نهر اللوار ، وهو مكان لايبعد كثيراً عن حاضرة الجمهورية الفرنسية اليوم . وقد قضى على ذلك الجيش روح التحاسد والتخاذل وسيادة الفوضى فى وحداته ، ولكن جيوش الاسلام لبثت فى جنوب فرنسا سنين بعد تلك الهزيمة فى الشمال وامتدت أيدى غزاة المسلمين إلى حدود سويسرا الغربية الحالية .

ثم كانت الدولة الأموية بالأندلس ، وكان عصرها الزاهر هناك ، وكان لها حول وقوة وبطش أيام أمرائها وخلفائها حتى أن أذنت شمس الوحدة بالأفول وعمت الفوضى ، وصار الناس طوائف ، وانقسم المسلمون فى تلك الجزيرة على بعضهم البعض ، فصارت خلافة الأمويين إلى أجزاء وقطع ، وقام كل قائد أو أمير على مدينة أو مقاطعة يدعو لنفسه ، كل يبتغى لنفسه ملكا وأن يصير ملكا ، وهزلت الحال فى بعض الأحيان حتى تنازع أفراد الرياسة فى مدينة واحدة ، فضعف أمرهم ، وامتدت يد الأطماع إلى بلادهم ، فأخذت تعتدى عليها ، وبدأ ظل الاسلام يتضاءل فى تلك الجزيرة الجميلة ، وانتهى الأمر بطرد البقية الباقية من المسلمين من غرناطة آخر معقل لبنى الأحمر فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

على أن يد المسلمين لم تقتصر على تلك الأرجاء فحسب ، بل إنهم امتلكوا جزائر البحر الأبيض المتوسط الغربية كما امتلكوا جزره الشرقية من قبل ومن بعد ، وكان لأمراء تونس الغلبة على صقلية وما جاورها وعلى جزء من جنوب إيطاليا ، وكثيراً ما غزوا ما جاورهم من البلاد بأساطيلهم وسفنهم ، حتى قيل إنهم كادوا يهددون روما فى غزوة لهم .

وبعد أن لبثوا هناك ما شاء الله أن يلبثوا جاء النورمان من الشمال ، وتقلص ظل المسلمين من جنوب إيطاليا ومن الجزر ومن صقلية وعادوا إلى شمال إفريقية مرة أخرى .

الحروب الصليبية وبعض أثرها

ولا يفوتنا أن نذكر تلك الحملات الجنونية التى سودت صفحات التاريخ وتلك الأعمال البربرية التى لبثت قروناً عاراً على بنى الانسان الذى فرض عليه التسامح وحسن المعاملة واللين فى القول . ونعنى بتلك الحملات الحروب الصليبية التى تكررت على البلاد الاسلامية وعلى سواحل بحر الروم الشرقية مراراً . ولا بد أن نذكر ما كان من اختلاط وتعارف أثناء القتال وبعده ، وما رآه حملة الصليب فى البلاد الاسلامية من قوة وعلوم ومعارف ، وما نقلوه عن البلاد التى

أرادوا غزوها من فنون وعلوم ولغة ، فاذا أضفنا ذلك إلى ما ترجمه إخوانهم فى غرب أوروبا عن مسلمى الأندلس الفيحاء ونقلهم علومهم إلى اللاتينية أولا ، وما كان من غشيان تلاميذهم لمدارس وجامعات الأندلس واختلاطهم بالمسلمين ، إذا عرفنا ذلك كله أمكننا أن نتقدم خطوة إلى موضوعنا الذى نبحث فيه الآن ، وأمكننا أن نعرف السبب فى انتشار ألفاظ من اللغة العربية فى لغات أوروبا وفى لهجاتها أيضاً . وهذا هو الاحتكاك المباشر بين العربية وبين اللغات الأخرى عن أوروبا وفى لهجاتها .

ونرى من تتبع الألفاظ العربية التى دخلت على غيرها من اللغات ، أنها لم تترك لغة من لغات غرب أوروبا إلا ولها أثر فيها تقريباً ، ففى الاسبانية والبرتقالية والفرنسية والانجليزية والغالية القديمة ، وفى الألمانية واللغات الجرمانية الأصل كالهولندية والاسكندنافية فى شمال أوروبا ، وفى الروسية والبولندية واللغات الصقلبية الأخرى ، وفى الايطالية وفى بعض لهجات فرنسا وإيطاليا كلهجة مدينة نابولى الحالية لها أثر فيها . فتجد فى الأخيرة ألفاظاً عربية أخذها أهل تلك المدينة أثناء احتكاكهم بمسلمى صقلية ، وهم يعترفون بذلك ، فمن هذا كلمة برتقال مثلا ، فهى كذلك فى لهجة نابولى تقريباً كما يلوكونها هم بألسنتهم .

ويجدر بنا أن نذكر عثور الباحثين فى جهات البلطيق فى شمال أوروبا على سكة إسلامية عربية من آثار تجار المسلمين العرب الذين وصلوا إلى تلك الأرجاء يوماً من الأيام أثناء القرون الوسطى ، وهذا شىء له مغزاه كما لا يخفى .

الاحتكاك اللغوى غير المباشر

هذا شىء عن الاحتكاك المباشر بين العربية وغيرها فى أوروبا ، إلا أن هناك احتكاكا غير مباشر له شأن يذكر فى موضوع بحثنا ، ونعنى بذلك الاحتكاك عن طريق اللغة التركية .

وبيان ذلك : هو أن الأتراك بدأ دخولهم فى الاسلام أيام العباسيين حينما امتدت الفتوح الاسلامية إلى بلاد ما وراء النهر وفرغانه فى سيبيريا . وجاء زمن كانت لهم الكلمة النافذة عند الخلفاء وأمرائهم . بل أصبح منهم أمراء معدودون مستقلون كأحمد بن طولون بمصر ، وكان منهم السلاجقة ، وكان منهم الأتراك العثمانيون .

واللغة التركية لغة مغولية الأصل كاللغة اليابانية والمجرية والفنلندية . وقد دخل فيها كثير من الألفاظ الفارسية والعربية عند ما اشتد الاحتكاك بين تلك الشعوب ، وكثرت الألفاظ العربية فى التركية فى القرنين الأخيرين ، ومن يدرى ماذا يكون مصير تلك اللغة التركية العثمانية بعد عشرات من السنين لو لم يحدث ذلك الانقلاب الأخير المعروف الذى أوقف سيل العربية والفارسية ليحل محله سيل مغولى أو أوروبى ! ! ؟

بدأ الأتراك العثمانيون قليل عديدهم فى كنف السلجوقيين وأخذ الحظ يواتيهم . ولهذا اشمروا عن ساعد الجد حتى كونوا لأنفسهم إمارة صغيرة مالبثت أن كبرت ، وحلت محل السلاجقة وأخذت فى مناجزة الروم. وما لبث الأتراك أن امتلكوا جهات الأناضول وقفزوا إلى البر الأوروبى ، وطمحت نفوسهم إلى حاضرة دولة الروم الشرقية المحتضرة بعد أن انتزعوا جل ممتلكاتها التى جاورتهم ، وتم لهم النصر الباهر على يد محمد الفاتح ، ودخلوا عاصمة الروم بعد أن حاصروها وشددوا الحصار عليها براً وبحراً ، وتم لهم الظفر ورفعوا أعلامهم المظفرة على قلاع القسطنطينية ، وأخذوا يملكون أرجاء البلقان بلداً بلداً ، ويدكون معاقله وحصونه دكا ، وأخضعوا أممه وشعوبه المتباينة العديدة المذاهب والألوان والخلقة والشكل المختلفة الطباع، حتى تم لهم إخضاع البلقان كله ورأوا بلاد إخوانهم فى الجنس المغولى سلمة تباع فى ميادين القتال بالحرب والضرب ، فانسابوا فى سهول المجر ، ولبثوا نحواً من قرنين سادة على بنى عمومتهم هناك . ولم يكفهم هذا بل ساروا بخيلهم ورجلهم، وحاصروا فينا عاصمة النمسا مرتين ، لم يتمكنوا أثناءها من فتحها فارتدوا عنها بعد أن قاتلوا أثناء تلك المعارك والفتوح العديدة كل أمم البلقان وكثيراً من أمم أوروبا الوسطى . وأدخلوا الاسلام فى بعض تلك الأرجاء التى دانت لسلطانهم يوماً ما كبلاد البوسنة والهرسك وبلاد ألبانيا وبعض بلاد مقدونيا.

فنجد من ذلك أن الأمم التى دخلت فى الاسلام أخذت عن اللغة العربية الألفاظ التى يقيمون بها الصلاة ، ويتعلمها كثير منهم لاقامة مشاعر دينهم ولمعرفة أحكامه وقواعده وأصوله ، والتى اعتبروها لغة دينهم ولغة وحدتهم وجامعتهم الاسلامية التى تجمعهم وإخوانهم فى أنحاء المعمورة فى عروة لا انفصام لها .

أما الأمم الأخرى التى لم تذق حلاوة الدين القويم ، فلم تعدم أن نقلت لبعض الألفاظ والاصطلاحات الاسلامية العربية التى استعملها الأتراك إلى لغاتهم ، ونطقوا بها واستعملوا أكثرها فى حديثهم والأخرى فى كتاباتهم لمناسبة تدعو إلى ذلك .

وعلى العموم يمكننا أن نقول إن تلك الألفاظ والاصطلاحات العربية قد نقلت عن طريق غير مباشر أى عن طريق لغة الأتراك العثمانيين .

على مظهر